مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والسياسية
المجلد 41- 3- 2025 :1- 23

Damascus university Journal for the economic and political sciences
Vol 41 - 3- 2025 : 1 - 23

مشكلة الهوية العربية وتداعياتها على الهوية السورية خلال أزمة 2011

مازن كامل جبور[1]، كريم أبو حلاوة[2]، نزار مؤيد جزان[3]

1. طالب دكتوراه، قسم الدراسات السياسية، كلية العلوم السياسية، جامعة دمشق.
Mazen.jabbour@damascusuniversity.edu.sy
2. أستاذ مساعد، قسم الدراسات السياسية، كلية العلوم السياسية، جامعة دمشق.
Kareem.abohalawa@damascusuniversity.edu.sy
3. مدرس، قسم الدراسات السياسية، كلية العلوم السياسية، جامعة دمشق.
Nezar.jazzan@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

عانت الهوية العربية من العديد من الأزمات التي حولتها إلى مشكلة في الاجتماعي السياسي العربي، مشكلة على صعيد الانتماء والولاء، وعلى صعيد الأيديولوجية، وشكّل التعدد الديني والعرقي والاثني والمذهبي وغيرها من الانقسامات داخل المجتمع العربي، سبب من أسباب نشوء الهويات الفرعية، التي غذّاها الاستعمار، وساهم بتقسيمه للوطن العربي بالمزيد من الانقسام والتشرذم في الهوية العربية، على أساس جغرافي، وحتى اللحظة التاريخية الراهنة لم تنجح الهوية العربية في تجاوز مشاكلها، بل كان لتلك المشاكل تداعياتها على الدول القطرية الناشئة، ومنها سورية، إذ كشفت الأزمة / الحرب عن تداعيات خطرة للهوية العربية على الهوية السورية، الأمر الذي يقتضي المعالجة.

خلص الباحث إلى أن معالجة المشكلة في الهوية السورية، تقتضي رفع تداعيات الهوية العربية عنها، ومن ثم تفكيك المشاكل التي تعتريها، بحثاً عن هوية تتسع للجميع وترضي الجميع وتحقق مصالحهم، إعادة بناء هذه الهوية، تتطلب مستلزمات ضرورية لتحقيق العيش المشترك بين أفراد المجتمع، للخروج من الوضع السوري الراهن، ومن هذه المستلزمات، بلورة مفاهيم التسامح والتعايش والمواطنة في المجتمع السوري، إذ يمثل مشروع بناء الهوية أهمية بالغة وأولوية قصوى، يتطلب أن يكون حاضراً في كل الخطوات الأخرى لإعادة بناء سورية الوطن الآمن المستقر ذات السيادة، بدءاً من إعادة صياغة الدستور، وصولاً إلى المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، مروراً بالإعلام وكل المؤسسات المدنية والنقابية والحزبية والبحثية، بما يتيح للفرد الكمية الكافية من الحرية، التي توسع الخيارات أمام الناس لإنتاج وعيهم بذاتهم وهويتهم، على أساس القيمة الحضارية، وهو ما لم نتمكن منه.

الكلمات المفتاحية: الهوية العربية – الهوية السورية – التيار الديني – التيار القومي – الإيديولوجية – الانتماء – الولاء.

تاريخ الايداع: 2023/2/20
تاريخ النشر : 2023/4/24

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب
CC BY-NC-SA

Arab Identity Problem and its Repercussions on the Syrian Identity during the Crisis 2011

Mazen kamil jabbour[1],Kareem Abo Halawa[2], Nezar Moayd jazzan[3]
[1] Phd student, Department of Political Studies, Faculty of Political Science, Damascus University. Mazen.jabbour@damascusuniversity.edu.sy
[2]Ass. Pro. Department of Political Studies, Faculty of Political Science, Damascus University. Kareem.abohalawa@damascusuniversity.edu.sy
[3]Phd, Department of Political Studies, Faculty of Political Science, Damascus University. Nezar.jazzan@damascusuniversity.edu.sy

Received: 20/2/2023
Accepted: 24/4/2023

Copyright: Damascus University-Syria
The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

Abstract:

Arab identity has suffered many crises that have turned it into a problem in the Arab socio-political sphere; a problem that regards affiliation, loyalty, and ideology. The ethnic and sectarian diversity, in addition to other divisions within Arab society, were only some of the reasons that led to the emergence of sub-identities, all nourished by the colonialism of course, that fueled in turn more and more schism and division within the Arab identity, taking advantage of the geographical factors.

This identity -up to the current crucial moment in history- has so far failed to overpass its problems, dragging along several territorial countries such as Syria. The crisis/war has exposed some serious repercussions of the Arab identity on the Syrian identity, raising an immediate need to redress this urgent matter.

Thus, the researcher has concluded that addressing the problem of the Syrian identity requires removing the implications of the Arab identity attached to it and then dissecting the components of the aforementioned problem to reach an inclusive identity that satisfies all parties included, and achieves their interests.

To rebuild this identity, we need some requirements to realize a shared living environment among society members and move out of the current Syrian situation. Among these requirements is developing the concepts of tolerance, coexistence, and citizenship in Syrian society.

The project of augmenting identity represents a top priority and necessitates in itself to be strongly present in all the other steps towards reestablishing a Syria that is a secure and stable homeland with full sovereignty, starting from reforming the Constitution, moving towards amending curriculums of schools and universities, making sure not to neglect media fields, and all other institutions of civil, syndicate, partisanship, and research spheres, all in a method that guarantees enough liberty for each individual in order to broaden the spectrum of choices for the public to express their self and identity awareness based on cultural value, which is yet to be accomplished.

Keywords: Arab Identity - Syrian Identity - Religious Stream - National Stream - Ideology - Belonging – Loyalty.

المقدمة:

يمثل العرب أمة واحدة في الإطار الثقافي وفي الإطار الحضاري وفي المقاييس التاريخية والجغرافية، نظراً لاشتراكهم في مجموعة عناصر أساسية لتشكيل الهوية الواحدة، مثل اللغة والثقافة والتاريخ والأرض، إلا أنهم لم يجتمعوا تاريخياً في إطار سياسي واحد على أساس موحّد.

لقد توالت الكثير من الأحداث على المنطقة العربية وغيرت في مسار التاريخ العربي، فمن دولة الخلافة التي انتهت برحيل العباسيين وما رافقها من صراع على السلطة بين الممالك المحلية، إلى مرحلة جديدة بدأت بالتدخل الأجنبي الذي عمل على فرض وجوده عسكرياً مستغلاً حالة العرب في تلك الحقبة، فالعرب لم يكونوا قد استوعبوا بعد التغيير الكبير المستجد في انهيار دولة الخلافة التي استمرت قروناً عديدة، ليجدوا أنفسهم أمام واقع جديد تمثل بالتبعية للآخر، رافقها حالة من الضعف الثقافي، إذ أن المنطقة العربية عموماً أصبحت خاضعة لسيطرة الحكم العثماني الذي استمر مدة طويلة، لينتقل العرب إلى مرحلة جديدة لعب فيها العامل الديني دوراً كبيراً، إلى حين ظهور قوة عالمية جديدة تسعى لفرض هيمنتها على الآخرين، ترافق ظهورها مع ضعف الحكم العثماني، ولم يكن للدين أي دور في هذه المرحلة.

أتاحت المرحلة الجديد انفتاح العرب على الحضارة الغربية الحديثة، ما أسهم في إعادة تشكيل وعي جديد، وبناء ثقافة نهضوية تهتم بأمور العرب وتبحث في واقعهم وتحاول تجديد إصلاحه، فقد برزت حركة أدبية فكرية وسياسية، بدأت تطرح مفاهيم نهضوية كالوحدة بين المسلمين، والحرية السياسية، وأن العرب أمة واحدة، من هذه الأفكار ما طرحه عبد الرحمن الكواكبي (2002)، الذي رأى أن الأمة العربية قد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، وأن اللغة العربية هي الرابطة الأولى بين العرب(34).

تبلور الوعي العربي حول الهوية في عدة تيارات واتجاهات بعضها ديني وبعضها ليبرالي وبعضها الآخر تقدمي ثوري، وفي هذه المرحلة ظهر التيار القومي، الذي رفض الوجود الخارجي، مؤكداً أن العرب أمة واحدة لها خصائصها، وأن اللغة العربية هي الرابط الأساسي، لكن مشروعها التحرري الوحدوي هزم، إذ جرى تطبيق اتفاقية سايكس بيكو، وبدأ التنفيذ العملي لوعد بلفور، وبدأت تظهر الكيانات الصغير المصطنعة.

هذه الأحداث المتتالية على الوطن العربي، جعلت العرب يواجهون مجموعة من المشكلات، في مقدمتها مشكلة الهوية العربية، التي كان لها تداعياتها الكبيرة على الهوية السورية خلال الأزمة / الحرب، وهو ما سندرسه في هذا البحث.

مشكلة الدراسة:

يعيش العرب اليوم جملة من المشكلات التي تقادم عليها الزمن من دون أن يجدوا حلاً واقعياً لها، كمشكلة الوحدة، ومشكلة تحرير فلسطين، ومشكلة التبعية، ومشكلة الحكم، ومشكلة الإرهاب، ومشكلة الهوية.

ولأن مشكلة الهوية حاضرة في الوعي والسلوك، في الخطابين الفلسفي والإيديولوجي، تم الوقوف عندها وتحليلها، لمعرفة معناها وحقيقتها وإشكالاتها، فهل يعود ذلك إلى تراخي فكرة الانتماء القومي، أو غياب التواصل، أو لها أسبابها الخارجية، مما حال دون وصول الإنسان العربي إلى وعي كلي يتعلق بالهوية.

انعكست إشكالات الهوية العربية السابقة على الهوية السورية، لتأتي أزمة 2011 وتعمّق المشاكل التي تعاني منها الدولة السورية على صعيد الهوية وغيرها، وهنا تكمن مشكلة الدراسة في مدى إمكانية تبيين أثر تداعيات مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية خلال الأزمة، ومحاولة تفكيكها.

تساؤلات الدراسة:

تطرح مشكلة الدراسة تساؤلاً رئيسياً مفاده: ما هي تداعيات مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية.

ويتفرع عن هذا التساؤل الرئيسي ثلاثة تساؤلات فرعية، تتمثل بالآتي:

1- ما هو مفهوم الهوية، وما هو مفهوم كل من الهوية السورية والهوية العربية؟

2- ما هي مشكلة الهوية العربية؟

3- كيف أثرت مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية خلال أزمة 2011، وما هي طرق معالجتها؟

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق هدف رئيسي، هو: بيان ماهية الأثر الذي تحدثه تداعيات مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية.

ويتفرع عن هذا الهدف الرئيس ثلاثة أهداف فرعية، تتمثل بالتالي:

1- التحديد النظري لمفهوم الهوية، وكل من مفهوم الهوية العربية والهوية السورية.

2- البحث في مشكلة الهوية العربية.

3- إبراز تداعيات مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية، وطرق معالجتها.

فرضيات الدراسة:

تنطلق الدراسة من فرضية أساسية مفادها:

مثل الخلل في مفهوم الانتماء والأيديولوجية، نتيجة تعدد الأديان والأعراق وإعادة رسم الجغرافيا في المنطقة العربية، مشكلة في الهوية العربية، هذه المشكلة كان لها تداعيات سلبية على الهوية السورية يتمثل أبرزها في ظهور مشكلة الهوية الإسلامية الأصولية والتكفيرية، وفي ظهور مشكلة الأيديولوجية القومية لدى الكرد السوريين، وفي عدم القدرة على تطوير الهوية وفق معطيات العصر.

ويتفرع عن هذه الفرضية ثلاثة، هي:

1- إن الهوية بوصفها مجموعة من القيم الجوهرية المطلقة، أخذت عدة معانٍ تبعاً لكل مرحلة ووفق الاتجاه المعرفي في كل مرحلة، ومحتوى خطابه الفلسفي.

2- تعاني الهوية العربية من إشكاليات عدة على صعيد الانتماء والولاء وعلى صعيد الأيديولوجية، كما أنها تعاني من ضعف وعجز فهي غير قادرة على إعادة إنتاجها وصياغتها باستمرار.

3- أثرت مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية وبرز ذلك خلال أزمة 2011، ورفع الأثر يحتاج إلى تفكيك المشكلة وإعادة بناء الهوية السورية وفق معطيات العصر.

منهجية البحث: اعتمد الباحث على:

1- المنهج الوصفي: من خلال توصيف الوضع العربي عموماً والوضع السوري خصوصاً للانطلاق منهما إلى وضع مفهوم محدد للهوية العربية والهوية السورية.

2- المنهج التحليلي: اعتمد الباحث على المنهج التحليلي في تحليل الأحداث العربية لمعرفة مشكلات الهوية ومن ثم محاولة تفكيكها.

الدراسات السابقة:

1- عرودكي، بدر الدين. (2020)، الهوية الوطنية السورية بين الإشكالية والالتباس – التاريخ والواقع والمستقبل، غازي عنتاب: تركيا، مركز حرمون للدراسات المعاصرة.

هدفت هذه الدراسة، بصورة رئيسة، إلى تشخيص وضع الهوية الوطنية السورية خلال قرن كامل، أي منذ إعلان المملكة السورية العربية في الثامن من آذار 1920 حتى نهاية العقد الثاني من القرن الحالي.

قدم البحث استعراضاً شديد الإيجاز لجذور مفهوم الهوية الوطنية، وانتقل إلى استعراض الهويات الوطنية التاريخية التي عرفتها دوائر العالم العربي الأربع: (الجزيرة العربية، بلاد الشام، وادي النيل، والمغرب في شمال أفريقيا)، وصولًا إلى سورية، ومن ثم ناقش البحث إشكالية الهوية الوطنية السورية والتباسها.

خلصت الدراسة إلى أنه لا يمكن في الحقيقة إنكار وجود هوية شامية، إن شئنا الدقة، تطوَّر التعبير عنها خلال العمل التدريجي على التحرر من هيمنة السلطة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر. لكن هذه الهوية التي جرى تأكيدها خلال المؤتمر السوري ومع إعلان المملكة السورية العربية شاملة بلدان سورية الطبيعية، سرعان ما أخذت في التلاشي بوصفها هوية شاملة مع بدء ترسيخ الهويات "القطرية" التي تلت تجزئة بلاد الشام بموجب الاتفاقية المذكورة.

2- أبو حلاوة، كريم (2018)، القلق من تصدع الهوية الوطنية، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد:

هدفت الدراسة إلى تبيان أن الصراع على الهوية يقع في صميم محاولات حيازة السلطة الرمزية، إذ أن امتلاك وإنتاج وتفسير الرموز، ومنها الهوية والعلم والشعار وغيرها، هو الذي يحدد موقع كل طرف، كما ويحدد حصته في عملية إنتاج وتوظيف الرموز.

وبينت الدراسة أن الحفر في تراكيب وطبقات الوعي السوري بمسألة الهوية، يُظهر العديد من التموضعات والتكوينات الأساسية ممتزجة مع بعض اللويحات والصفائح الأقل فاعلية فيما يخص الوعي بالهوية ومكوناتها.

وخلصت الدراسة إلى أن كل هوية تنطوي على مكونين: الأول، عميق وراسخ وأقرب إلى الثبات والبقاق، والثاني، مرن يدلل على سيرورة بناء وتطور الهوية وتجددها، فاللغة والأعراف والعادات وطريقة وعي العالم ومكانة المقدس أقرب إلى المكونات الثابتة والمستقرة في الهوية، بينما تشغل بقية المكونات الثقافية والاجتماعية المتصلة بالمخيال الاجتماعي والذاكرة الجمعية ومكونات العلن والجمال والفلسفة دور الفاعل الراهن في وعي الهوية.

3- اسبر، علي. (2018)، أزمة الهوية الوطنية بين الديني والسياسي، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد.

هدفت الدراسة إلى التفكير المعمّق في العناصر المكوّنة للهُويّة الوطنيّة السورية، تحديداً في مدّة الحرب على سورية، باعتباره أمراً حيويّاً إلى أقصى مدى.

وعدّت الدراسة أنَّ سورية التي تضربُ بجذورها إلى آلاف السنين في التاريخ الحضاريّ للنوع الإنسانيّ لا يُمكن أن تُختزل في أيّة هُويّة، وهذا يقتضي تجاوز المركزيات التي يقومُ عليها مفهوم الهويّة من عرقٍ أو طائفةٍ أو حزبٍ أو دعاوى ثوريّة غير ناضجة.

وخلصت الدراسة إلى أن الواقع الأليم الذي عاناه المواطنون السوريون كافةً، يؤول بنا إلى تعلّم درسٍ تاريخيّ ينبغي ألا يمحى من ذاكرة الأجيال القادمة من السوريين على امتداد العصور مفاده أنه لا يمكن تغليب عنصر على آخر من العناصر المكوّنة للهُويّة، لأنَّ هذا التغليب عينه سيتسبب بدمار البلاد. وبذا يتبيّن أنّه من الممتنع أن تُشكّل الهُويّة الوطنيّة السوريّة من مكوّنٍ واحدٍ أحدٍ أيّاً كان، إذ لا يمكن أن يوجد أيُّ مكوّن أحاديّ يقدر على أن يكون ضامناً لأمن الدولة وسلامتها، ذلك أنَّه لا يمكن عدّ العرق أو الدِّين أو الطائفة من مقوّمات الهويّة الوطنيّة لشعبٍ يتميّز بتنوّعٍ هائل مثل الشعب السوريّ، إذ كثيراً ما تكشف تجارب التاريخ عن تخلي الأشخاص عن عرقهم لصالح دينهم، أو عن دينهم لصالح عرقهم، بمعنى أنه قد يدخل أتباع ديانةٍ بعينها في صراعٍ عرقيّ في ما بينهم، أو يدخل أتباع عرق بعينه في صراعٍ مذهبيّ، بعضهم مع بعض، أو قد يترك المتحزبون حزبهم إذا ناداهم صوت الطائفة أو القبيلة أو العشيرة.

مخطط البحث:

مقدمة:
المبحث الأول: التحديد النظري لمفهوم الهوية
المطلب الأول: مفهوم الهوية
المطلب الثاني: الهوية العربية والهوية السورية
المبحث الثاني: مشكلة الهوية العربية
المطلب الأول: العرب ومسألة الانتماء
المطلب الثاني: الهوية العربية والإيديولوجية
المبحث الثالث: الهوية السورية وأزمة 2011: المشكلة والحل
المطلب الأول: مشكلة الهوية السورية في ظل الأزمة
المطلب الثاني: تفكيك المشكلة وإعادة البناء
خاتمة
قائمة المصادر والمراجع

المبحث الأول: التحديد النظري لمفهوم الهوية

يمثل التحديد النظري لمفهوم ما، كشف عما يكتنزه المفهوم من علاقات ظاهرة وأخرى مضمرة، الأمر الذي يساعد الباحثين في تحليل الطبيعة التي نشأ عنها المفهوم والإجابة عن التساؤلات التي يطرحها. وفي هذا السياق، يشير الدكتور أحمد برقاوي (2010)، إلى أنه "لا نستطيع أن نحلل تلك العلاقات التي ينطوي عليها سؤال الهوية من دون التحديد النظري لهذا المفهوم، والبحث في تعدد دلالاته، ومعانيه وتعين وظائفه"(1).

بناءً على ما سبق سيقوم الباحث في هذا المبحث من الدراسة بالتحديد النظري لمفهوم الهوية، من خلال تقديم عرض لمفهوم الهوية بشكل عام، ولكل من الهوية العربية والهوية السورية بشكل خاص.

المطلب الأول: مفهوم الهوية

تبين عملية البحث في الدلالة اللغوية لمفهوم الهوية، أنها دلالة على الشيء أو الشخص المراد تعريفه، فهي "كلمة مركبة من الضمير الغائب (هو) مضافاً إليها ياء النسبة لتدل الكلمة على ماهية الشيء أو الشخص" (المنجد في اللغة...، 2002، ص39)، فالهوية هي الميزات والخصائص التي تمنح شيئاً بعينه طابعاً يميزه عن الآخر.

أما بالنسبة للدلالة الفلسفية للهوية، فيعرفها الفارابي بأنها: "كلمة مولدة استقاها المترجمون القدامى من (هو) لينتقلوا بواسطتها إلى العربية. فالمعنى الذي تؤديه كلمة (هست) بالفارسية وكلمة (استين) باليونانية أي فعل الكينونة في اللغات الهندية – الأوروبية الذي يربط الموضوع والمحمول، ثم عدلوا عنها ووضعوا كلمة (الموجود) مكان (هو) و(الوجود) مكان الـ(هوية)" (زيادة، 1986، 821).

أخذ مفهوم الهوية من الجانب الصوفي طابع المثالية المطلقة التي لا يمكن إدراكها، فالهوية عند المتصوفة هي: "الغيب الذي لا يصح شهوده للغير كغيب الهوية المعبر عنه كنهاً باللاتعيين، وهو أبطن البواطن" (المعجم الوسيط، 1986، 103)، بينما أكدت دراسات أخرى على الجانب الميتافيزيقي لمفهوم الهوية وعدّتها "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (الجرجاني، 1938، 199).

بدأ مفهوم الهوية يتعين بصورة أوضح في المرحلة المعاصرة، نتيجة الظروف التاريخية التي مرت بها المجتمعات البشرية، إذ أسهمت عوامل عدة في بلورته، وفي مقدمتها تقدم فلسفة الذات خصوصاً، وظهور فلسفة الإنسان عموماً، "فالهوية بالنسبة إلى الإنسان هي ما يميزه عن غيره في جوهره ويكسبه الشعور بالتمايز عن الآخر والتفرد، فيجعله يحدد الصورة التي يحملها في نفسه عن نفسه وكذلك هي الشعور بالتمايز أنا لست الآخر" (برقاوي، 2006، 13).

يرى الباحث أن التعريفات النظرية السابقة للهوية بوصفها مجموعة من القيم الجوهرية المطلقة، أخذت عدة معانٍ تبعاً لكل مرحلة، ووفق الاتجاه المعرفي في كل مرحلة، ومحتوى خطابه الفلسفي سواء بالمعنى الوجودي أم الفلسفي أم الصوفي أم المعاصر، ليكون الجوهر المطلق هو المشترك الذي يدلل على الثبات والتفرد والوحدانية.

المطلب الثاني: الهوية العربية والهوية السورية:

أولاً: الهوية العربية:

شهد العالم مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجموعة من الأحداث على الصعيد الاقتصادي والثقافي والسياسي والاجتماعي والعسكري أثرت في حركة التاريخ، وكون العرب جزءاً من هذا العالم، فإنه من الطبيعي أن يحدث تغيير في واقعهم خصوصاً أن المنطقة العربية كانت مسرحاً لكثير من الأحداث والاضطرابات.

أسهم هذا الأمر في تشكيل وعي جديد تأثر به العرب، فمع ضعف الحكم العثماني وفقدانه السيطرة على العرب، تُرِك الإنسان العربي أمام تساؤلات كبيرة أهمها كيفية التعامل مع الواقع الجديد، هنا بدأت المفاهيم النهضوية بالتكون والانبثاق على أيدي عدد من المفكرين العرب الإصلاحيين، مثل (عبد الرحمن الكواكبي، جمال الدين الأفغاني، الشيخ محمد عبده، محمد رشيد رضا، بطرس البستاني، إبراهيم اليازجي، جرجي زيدان، قاسم أمين، رفيق العظم، شكيب أرسلان، أحمد لطفي السيد، معروف الرصافي، شبلي شميل، فرح أنطون، سلامة موسى)، وفي أوج ذلك ظهر ما يسمى "الفكر القومي" عصر القوميات، وضمن الدولة العثمانية ذاتها، إذ أن تلك القوميات التي برزت وطرحت ذاتها، وحاولت أن تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة من الانتماء وإظهار هويتها في خطاباتها، عملت في معظمها على فرض نفسها على الآخر.

ترافق مع ظهور القوميات، ظهور حركات تحرر تدعو إلى الحرية والاستقلال، إذ أن الإنسان العربي بدأ بالسعي لفهم الآخر والتعامل معه، فكان السؤال عن الهوية "هو رد فعل ضد الآخر، ونزوعاً حالماً لتأكيد الأنا بصورة أقوى في تلك المرحلة" (الجابري، 2006، 17).

فرض الواقع الجديد تبلور أفكار جديدة وخطاب جديد وعلى رأسها الخطاب القومي العربي، الذي بدأ بالظهور عند العرب، "لتكون القومية العربية استجابة لواقع موضوعي، ورد فعل على محاولات التذويب والاضطهاد العنصريين" (مكي، 2002، 16)، فالشعور بالقهر يدفع الإنسان إلى العمل على تغيير واقعه وذلك من خلال البحث في سبل الخلاص وطرح حلول جديدة وبدائل لهذا الواقع.

برزت البدايات الأولى لفكرة القومية العربية في بلاد الشام، وكانت الملامح الجديدة للنهضة العربية قد بدأت بالتشكل على شكل جمعيات ومنتديات ركزت أهدافها على بعث التراث العربي وإحيائه، وذلك بالتركيز على أمجاد الماضي ومحاولة استحضاره إلى الواقع المعاصر في تلك الحقبة، بالإضافة إلى محاولات إبراز فكرة أن العرب جماعة وأمة واحدة لها تاريخها المشترك وإرثها الحضاري ولغتها الواحدة.

أدت محاولة صوغ هوية عربية مشتركة كقومية تعادل في وجودها القوميات الأخرى، إلى تحويل الخطاب القومي إلى خطاب يعبر عن الهوية العربية في تلك الحقبة ويجمع العرب كلهم، "إذ إن طرح أفكار الهوية كالقومية العربية جاء كتعبير في الرغبة عن الاستقلال عن العثمانيين، وكرد فعل ضد الوعي القومي العثماني، الذي كان يهدد بطموحاته الاستعلائية، القوميات الأخرى داخل الخلافة العثمانية الأمر الذي أدى إلى تبلور الوعي القومي لدى العرب" (الجابري، 2006، 40).

رافق هذه الأحداث شكل من أشكال الاضطراب والفوضى، الأمر الذي دفع بعض الدول الغربية إلى التدخل في الوضع العربي تحت مسميات ومبررات عديدة، كحماية الأقليات الطائفية ومساعدة العرب وحركات النهضة وبث الحرية وتقديم المعونات، وكان لهذا التدخل دور كبير في الأحداث الطائفية والحروب الأهلية، إلا أن إمكانية التحقق في الواقع المعاش، فيما يخص العمل القومي في تلك المرحلة، ضعيفة إلى حدٍّ لم يتبلور بصورة واضحة آلية التعامل مع الوضع الجديد ولم تتضح مشاعر الانتماء إلى الفكر القومي بصورة كلية، بالإضافة إلى تعدد أشكال الوعي عند العرب، الذي جعل سؤال الهوية حاضراً في وعيهم.

ثانياً: الهوية السورية:

ولدت سورية الجديدة، مع دخول القوات الفرنسية دمشق وإسقاط حكومة المملكة السورية العربية وإعلان حكم الانتداب الفرنسي رسمياً بتاريخ تموز 1920، ومع هذه الولادة تجلت إشكالية الانتماء والأمة في سورية، إذ أنه مع انتشار النزعات القومية في مناطق الإمبراطورية العثمانية المختلفة، ظهرت جمعيات تحمل صفة العربية وتقول بالانتماء إلى العروبة ثقافة ولغة، أسستها ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر نخبٌ تنتمي إلى مناطق المشرق العربي المختلفة.

بدأ الحديث عن سورية الطبيعية على الصعيد السياسي، حين أسست أول جمعية سياسية سرية في بيروت عام 1875، وكان الهدف الأول في برنامجها الحصول على استقلال سورية ولبنان (فرزت، 1955، 28).

استخدمت عبارتي "الأمة السورية" و "القضية السورية"، أول مرة، حين أعلن الأمير فيصل بن الحسين بدمشق بتاريخ تشرين الأول 1918، إثر انهيار الدولة العثمانية ودخول القوات العربية إليها، متوجهاً إلى أهالي سورية، تشكيل حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه (...) شاملة جميع البلاد السورية" (باروت، 2013، 23 – 48)، لتستعيد سورية الطبيعية واحدة من هوياتها الأولى، العربية، وبعد انعقاد المؤتمر السوري في دورته الثالثة، أعلن استقلال سورية ضمن حدودها الطبيعية في 8 آذار 1920، إلا أن هذا الاستقلال سرعان ما تم انتهاكه بالاحتلال الفرنسي تطبيقاً لاتفاقية سايكس بيكو.

بدأ السوريون المنتمون إلى مختلف مناطق سورية الطبيعية ينشطون في تأسيس الجمعيات شيئاً فشيئاً منذ إعلان الدستور بالأستانة عام 1908، مثل جمعية الإخاء العربي العثماني، أو المنتدى الأدبي، أو حزب اللامركزية الإدارية (باروت، 2013، 20 – 32)، وقد أسست هذه الجمعيات كافة كي ترفع مطالب قومية عربية في وجه جمعية الاتحاد والترقي التركية.

إذاً ولدت الإشكالية والالتباس في الانتماء الوطني مع ولادة سورية الجديدة، هذا الكيان المستحدث متعدد الانتماءات التاريخية والثقافية والاثنية، نظراً لأن النخب السورية التي شاركت في الثورة العربية وخاب أملها في تحقيق الدولة العربية المنشودة، بقيت تتطلع إلى استعادة هذه الدولة.

كانت النخبة السياسية في سورية تتأقلم في مواجهتها اليومية لما فرضته ضرورات التعامل مع سلطات الانتداب الفرنسي على سورية طوال ربع قرن، داخلياً وخارجياً، مع ما يمكن تسميته انتماء الأمر الواقع الذي فرضه الفرنسيون والإنكليز بتقاسمهم سورية الطبيعية، أي الانتماء إلى سورية الجديدة التي ستعيد فرنسا رسمها مجدداً بعد محاولات تجزئة المجزأ إلى دول ثلاث (دمشق وحلب ولبنان)، وإقليمين يتمتعان بالحكم الذاتي (جبل العلويين وجبل الدروز) ولوائين تابعين لدولة حلب (اسكندرونة ودير الزور)، ثم التوحيد والتنازل عن لواء اسكندرون إلى تركيا وقيام دولة لبنان المستقلة، هذه التجزئة التي قادت إلى ظهور نزعات مناطقية لمصلحة الانتداب. منذ ذلك الحين استخدمت صفة السوري تعبيراً يلازم أسماء مثل الشعب والوطن والحكومة والدستور بل الأمة أيضاً (عرودكي، 2020، 21).

تراجعت صفة العربي عند الحديث عن سكان سورية الجديدة، وأدى ذلك إلى خدمة النخبة السياسية التي برزت آنذاك بوصفها قوة وطنية ومقاومة من أجل الخلاص من الانتداب وتحقيق الاستقلال، وقد عملت هذه النخبة التي سبق أن شارك عدد من أعضائها في الحركة العربية المناهضة للدولة العثماني، على تشكيل "الكتلة الوطنية" عام 1928 التي كانت أول تكتل سوري وطني رسمي على الصعيد السياسي مناهض للانتداب ويسعى لاستقلال سورية التي بقيت في أذهان أعضائه جزءاً من جغرافية أوسع، هي سورية الطبيعية وما حولها من بلدان عربية (عرودكي، 2020، 22–23).

لقد كانت الهوية المهيمنة على سلوك معظم السياسيين والمثقفين السوريين وفكرهم، ممن كانوا ضمن الكتلة الوطنية أو في عصبة العمل القومي، عربية أكثر مما هي سورية. إلا أنهما لم يكونا وحدهما في ساحة العمل الساسي السوري بل كان هناك الحزب الشيوعي السوري الذي أسس في لبنان عام 1924، لكن لم يكن له أي دور في بلورة هوية انتماء سوري واضح خلال مرحلة الانتداب الفرنسي يمكن أن يؤلف مساهمة ما في بروز الهوية السورية، وذلك لارتباطه بالأحزاب الشيوعية الأم في كل من روسيا وفرنسا.

على أن فكرة "الأمة السورية" ومن ثم "الهوية السورية " لاحقاً، وجدت للمرة الأولى من يتبنّاها ويعلنها صراحة، في شخص أنطون سعادة الذي أسس عام 1932"الحزب السوري القومي الاجتماعي" في لبنان، وكان مفهوم سورية الذي طرحه الحزب يقوم على أنها "هي بلاد الشام التي تضمنت الأراضي الواقعة بين سفوح جبال طوروس شمالاً وسيناء جنوباً وبادية الشام شرقاً، شاملة لبنان وفلسطين وشرق الأردن، وأن هذه البلدان الثلاثة سلخت عن سورية الأم" (ديب، 2012، 83–84).

إلى جانب هذين المفهومين للانتماء القومي العربي أو للأمة السورية، تطور داخل سورية تدريجياً مفهوم آخر للانتماء هو المفهوم الديني، إذ أسست في مصر عام 1928 جمعية الإخوان المسلمين، التي انطلقت من اعتبار نفسها "هيئة إسلامية جامعة تعمل لتحقيق الأغراض التي جاء من أجلها الإسلام"، وحققت منذ تأسيسها انتشاراً واسعاً، ولا سيما بين الشباب والطلبة، وصل صداه إلى سورية، فبدأ تأسيس الجمعيات الدينية بأسماء مختلفة في حلب ودمشق وحمص وحماه ثم اجتمعت هذه الجمعيات باسم واحد هو "جمعية شباب محمد" التي استمرت حتى انعقاد مؤتمر عام 1944 الذي اتخذ قراراً بتأليف لجنة مركزية عليا في دمشق، وأصبح اسم الجمعية "الإخوان المسلمون" (فرزت، 1955، 246–247).

يرى الباحث أن ترسيخ مفهوم سورية المتغيرة جغرافياً من سورية الطبيعية إلى سورية سايكس بيكو وصولاً إلى سورية ضمن حدودها الجغرافية الحالية، جاء نتيجة الأهداف الاستعمارية لكل من فرنسا وإنكلترا عبر اتفاقية سايكس/بيكو، ومن هنا برزت مسألة الهوية الوطنية السورية، هاجساً يولد الأسئلة باستمرار في أذهان السوريين، خصوصاً أن الإجماع الوطني على الهوية لم يتحقق خلال مرحلة الانتداب إلا ضمن صورة المقاومة للاحتلال كما تحقق مع نهاية مرحلة الاحتلال العثماني.

انطلاقاً مما سبق برزت إشكالية الهوية والانتماء في سورية من خلال توزعها بين هويات عدّة، هوية جغرافية فرضها الاستعمار، وهوية عربية أساسها تاريخي، وهوية إسلامية.

المبحث الثاني: مشكلة الهوية العربية:

بعد البحث في الجانب النظري لكل من مفهوم الهوية والهوية العربية والهوية السورية، يدرس الباحث في هذا المبحث مشكلة الهوية العربية المعاصرة، بوصفها مشكلة متعينة في الواقع العربي المعاش، أي دراستها كحالة شعورية يعيشها الإنسان العربي بتعييناتها سواء في واقعه أم في مجتمعه أم في وعيه ونظرته إلى العالم وسلوكه ومعتقداته وعقائده، فيتحول عندها المفهوم المجرد للهوية إلى خطاب يُعبّر به عن حالة الأمة العربية في واقعها.

وهو ما سيقوم به الباحث من خلال العرض لمسألة الانتماء عند العرب، وللطبيعة العلائقية بين الهوية العربية والإيديولوجيا.

المطلب الأول: العرب ومسألة الانتماء والولاء:

من أجل وعي الهوية لا بد من وعي الانتماء، لأن وعي الهوية لا يتعين إلا به، فالإنسان عندما يفقد شعوره بالانتماء يفقد شعوره بالهوية، فقد أنتمي إلى أمة أو إلى وطن أو إلى دين أو إلى مذهب وطائفة أو إلى قبيلة أو إلى قومية أو إلى حزب أو إلى جماعة

أو إلى عائلة.... الخ، وانتمائي هذا يعني الارتباط الذي أعبر عنه من خلال سلوكي وحياتي، فالفرد يظهر انتماءه إلى دينه من خلال التزامه بتعاليم هذا الدين وطقوسه، وكذلك كل الانتماءات الأخرى، إذ تتجلى في أرض الواقع من خلال ممارسات تدل عليها.

يعد الانتماء جزء لا يتجزأ من أي منظومة اجتماعية، فمن الناحية اللغوية، هو الانتساب إلى شيء ما، وهو من فعل (نمى) أي انتسب إلى أصل ورجع إليه، أما من الناحية الاصطلاحية فهو: "النزعة التي تدفع الفرد إلى الدخول في إطار اجتماعي فكري معين بما تقتضي من التزام بمعايير هذا الإطار وقواعده ونصرته والدفاع عنه، في مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية الأخرى" (راتب، 1999، 57).

وبتقدير الباحث فإن الانتماء هو: سلوك الفرد بالانتساب إلى أصل أو جماعة منظمة أو غير منظمة، تحقق له ذاته ووجوده، وتعطيه مكانة في محيطه، وهو يعكس معنى الكلية والاحتواء في إطارها.

ونظراً لأن الهوية هي وعي الانتماء، فمن الطبيعي أن يبقى السؤال حولها هو الأكثر حضوراً كون الإنسان العربي لم يجب عنه بعد، ولم يصل إلى درجة وعي حقيقي لانتمائه أو يمكن القول إنه لم يحدد بعد ملامح انتمائه، فسؤال الهوية أصبح سؤالاً عاماً يعني كل إنسان عربي، إذ إنه يمس الجماعة وليس الفرد فحسب مضمونه: من نحن؟ وما الذي يقومنا؟ لأن الهوية في التعريف هي ما يتقوّم به الشيء، وهذا يعني السؤال عن الجوهري والثانوي فينا، فالهوية هي التي تميزنا عن الآخر تميزاً مستمراً، فهل هناك تناقض بين الهوية والاختلاف؟ (برقاوي، 2004، 278)

يرى الباحث أن وعي فكرة الانتماء لم تكن موجودة في تلك المرحلة بصورة واضحة للإنسان العربي الذي كان في حالة من التعددية في وعيه مشاعره الحقيقية، مما أدّى إلى تراخٍ في وعي العرب هويتهم بصورة صحيحة، وعدم القدرة على تحديدها، إذ أن الافتقار إلى ما يرقى بالشعور إلى مستوى التضامن القومي في العالم العربي، يُعزى إلى أن عصور الانحطاط وفساد الحكم قد أضعفت روح الجماعة بين السكان، وأوهنت صلابتها وتماسكها، والعرب في طبيعة الحال ينتمون إلى هويات متعددة ضيقة ومذاهب عديدة، سواء أكان انتماؤهم إلى مكان أو عشيرة أم عقيدة، هذا بالإضافة إلى ظهور الخطاب الديني الذي لم يقتصر على المسلمين والمسيحيين، بل تشعب إلى مذاهب وطوائف وكان الولاء الأكبر لها على حساب الشعور بالانتماء لوطن أو دولة أو قومية.

لقد بات الشعور بالانتماء لدى العرب مهدداً وصار الإنسان العربي شاعراً بهذا التهديد، الأمر الذي حرك لديه الشعور بضرورة العمل على تعزيز انتمائه لهوية تتوافق مع واقعه، "فالهويات المهددة هي الهوية المنعزلة، أو التي لا تشارك في حاضر العالم، ثم إن الهويات الباقية والمتجددة إنما هي الهويات والانتماءات المشاركة في تقدم العالم عن طريق الانخراط فيه، والمنافسة في نطاق قيمه وأعرافه". (سنو، 1996، 162)

تختلف دلالة الولاء عن دلالة الانتماء، إذ أن لكل منهما دلالة مختلفة عن الآخر، فبينما يعكس الانتماء مفهوم الكلية، يعكس مفهوم الولاء الدلالية الفردية المباشرة لحقيقة وجود الناس في إطار حرية اختيارهم وفقاً لمصالحهم الحياتية، ولاتجاهاتهم وميولهم في الفكر والسياسة، "فالولاء حالة دمج الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل، ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية جمعاء" (محمود، 1990، 391).

نجد أن الحالة العربية تعاني من مشكلة في الانتماء والولاء، إذ أن ما يطغى على الإنسان العربي هو مشاعر الولاء أكثر من مشاعر الانتماء، إذ أن مشاعر الانتماء عند الإنسان العربي ما زالت متذبذبة وضعيفة، مما يجعله إنساناً متقلباً، لأن ولاءه غير ثابت، بل يرتبط بالحالة الفردية للشخص، بخلاف الانتماء الذي هو حالة شاملة لمجتمع ما.

وفي هذا السياق تبرز العديد من التساؤلات عن الانتماء والولاء عند الإنسان العربي، مثل: ما هو الحجم الفعلي للولاء الطائفي؟ أهو ولاء لرئيس الطائفة الدينية؟ أي ولاء طائفي لشخص، أم هو ولاء لزعيم سياسي للطائفة؟ أي ولاء لشخص سياسي صاحب فكر ويتزعم طائفة ما. أولائي له من الناحية السياسية لتمتعه بقوة تأثير يمكن من خلالها إيصالي إلى موقع سياسي، أم للطائفة؟ وذلك لتمتعه بقوة تأثير معنوي يعطيها نوعاً من الحماية (بركات، 1996، 38).

إذاً يخلص الباحث إلى أن الولاء يكون أحياناً بحسب المصلحة، فقد أكون منتمياً لهوية ما ولكن ولائي يختلف عن انتمائي، فمثلاً أنا عربي، ولكن ولائي قد يكون لجهة غير عربية، وهذا هو واقع العرب حالياً، فيمكن أن أكون منتمياً إلى طائفة أو دين أو عشيرة، وفي الوقت نفسه أنادي بالشعارات الماركسية، أو غيرها.

المطلب الثاني: الهوية العربية والإيديولوجية:

تكمن أزمة الهوية العربية في اختلاف شتى مجالات الحياة والفكر والوعي والسياسة والاقتصاد، والأهم من ذلك تشكل رؤى إيديولوجية مختلفة بعضها مع بعض في مفهوم الدولة، إذ ظهر الخطاب الإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر في وعي الهوية متمثلاً في تيارين رئيسيين في الوطن العربي، هما:

1- التيار الديني:

يتمثل التيار الديني فكرياً بالإسلام السياسي الذي عمل على بناء دولة دينية ذات طابع إسلامي بكل اتجاهاتها، إذ شكلت الدعوات لتحقيق الاستقلال بفصل الأمة العربية عن الدولة العثمانية، مع بدايات النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بدايات الوعي بضرورة الانتماء كهوية عربية مميزة لهم، وتمثل هذا الوعي في عدة تيارات من بينها تيار رفع لواء الدين وأعلى من شأنه، لبناء دولة عربية هويتها الإسلام، وهذه الدعوة "تمثلت في العودة إلى الإسلام الأول، ورفض الانحرافات والرواسب البالية، وفي هذه الدعوة رد على التحدي المتمثل في التدهور، وفيها نقد للإسلام المتمثل بالسلطة العثمانية ورفض هذه السلطة وما تمثّل" (الدوري، 1984، 141).

ظهر هذا الوعي من خلال بعض الحركات الاستقلالية التي حاولت أن تناهض الدولة العثمانية، ودعت لبناء دولة عربية ذات طابع ديني أساسها الهوية الإسلامية، من أهم هذه الحركات، الحركة الوهابية (عمارة، 1980، 30)، ومن الحركات الأخرى التي شابهت الوهابية في مشروعها لتأسيس دولة عربية إسلامية، كانت الحركة السنوسية، والحركة المهدية، التي سارت في الاتجاه ذاته (عمارة، 1980، 31). هذه الحركات التي طرحت فكرة الدولة الإسلامية السلفية، دخلت بعضها مع بعضٍ، في صراع سياسي إيديولوجي، لفرض فكرها وذاتها على الآخر.

مع اشتداد الصراع في العالم العربي والعالم كله، ظهر ما يسمى فكرة "الجامعة الإسلامية"، كحركة عامة تقدم خطابها كهوية جامعة للمسلمين جميعاً، محاولة تشكيل وعي جديد لفكرة الدولة العربية وهويتها الدينية، "فبدأت تجدد حياة الأمة وتوقظها وتسلحها، عن طريق تجديد الإسلام، من خلال التركيز على سلفية دينية تعود إلى المنابع الأولى والنقية والبسيطة، متخطية ومتجاوزة البدع والخرافات التي أثقلت العقل العربي الإسلامي بالقيود والانحلال" (عمارة، 1980، 31)، ومثلت فكرة التوحيد بين العروبة والإسلام، المعلم الأساسي لهذا الخطاب، مبنياً على أساس أن العرب هويتهم الإسلام، ومن ثم دولتهم يجب أن تكون ذات انتماء إسلامي.

واقتران العروبة بالإسلام بني على أسلمة الدولة العربية التي لم تتحقق بعد، أي التي كان يعمل على نشوئها، ففي رأيهم "أن عروبة إسلامنا لا تعني اختصاصه بالعرب من دون الناس، وإنما تعني ضرورة اقتران العربي بالإسلام، فتنتشر أينما انتشر، وتدرس حيثما

يتم التبشير بعقيدته وشريعته، لأنها السبيل الوحيد الحق لوعي الإسلام الحقيقي وفقه عقيدته وشريعته وإقامة نظامه في هذه الحياة....، وإن حضارة الإسلام كانت وستظل عربية في جوانب الفكر والإبداع...، ومن ثم فلا بد من اقتران العروبة والتعريب بالإسلام، فتنمو العروبة بنمو الإسلام وانتشاره" (عمارة، 1979، 349)، فعملوا على أسلمة الدولة بكل معالمها كشرط أساسي لتقدم العرب وتطوير فكرهم، وتحقيق استقلالهم كهوية مميزة لهم من غيرهم.

ومع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، بدأ الخطاب الديني بالتبلور من جديد بإيديولوجية فكرية بتأكيد سؤال الهوية والانتماء وأسلمة الأمة العربية خصوصاً بعد نكسة حزيران عام 1967، التي يمكن عدها بداية انحسار التيار القومي العربي، بدأت الأصوات تتعالي بأنه لم يبق من خير إلا في الدين، فكانت بداية المد الإسلامي، لتبدأ مرحلة الإسلام السياسي، الذي رفض الإيديولوجية القومية ودعا لنشر إيديولوجيته المبنية على عروبة الإسلام، ومن الأمثلة البارزة على قوى الإسلام السياسي، حركة الإخوان المسلمين، التي قدمت خطاب يتمثل في مبادئ دينية سياسية أساسها مبني على فكرة أن الإسلام هو الحل الأمثل لبناء الأمة، وتحقيق الدولة على أرض الواقع، وهويتها الإسلام الذي هو الوحيد القادر على النهوض بأحوالها.

تبدأ حركة الإخوان المسلمين من خلال بناء أرضية محلية تنطلق منها للوصول إلى الهدف الأساسي في تشكيل الدولة الإسلامية، إلا أن طموحهم لم يقف عند حدود الدولة الإسلامية العربية أو الأمة العربية فقط، بل تعدى ذلك الخطاب ليشكل إيديولوجية عالمية بتحوله إلى خطاب كوني، إذ يعتبر حسن البنا أن الإخوان يريدون الخير للعالم كله، وأن لا تعارض بين وحدات العالم، إذ تشد كل منها أزر الأخرى، وفي النهاية وبعد تشكيل عصبة الأمم الإسلامية يكون على رأس هذه العصبة الإمام (البنا، 1977، 45-50).

يخلص الباحث إلى أن خطاب الإخوان، يمثل خطاباً ماضوياً يبتعد عن ملامسة الواقع العربي والوقوف على أزمته ليتحول إلى خطاب إيديولوجي، يعبر عن نفسه بصورة فوضوية عنيفة تصل إلى حد القتل باسم الدين، وفرض إيديولوجيته بالقوة، وتكفير الآخر الذي لا يؤمن بمبادئه، أي أن خطابهم كان خطاب سياسي يستخدم كل الوسائل المتاحة لفرض ذاته.

كذلك يطرح الفكر الأصولي ذاته كقوة، محاولاً إحضار الماضي ولصقه بالواقع، ومن أبرز من مثله السيد قطب، الذي وضع المبادئ الأساسية للخطاب الأصولي، وكان رافضاً بشكل قطعي التعامل مع الاتجاهات والأنظمة القائمة، أو أي تيار فكري أو خطاب، وهذا ما عبر عنه بالقول: "معركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام، كل منها يقوم على قاعدة مناقضة تماماً للقاعدة التي يقوم عليها المجتمع الآخر" (قطب، 1979، 142).

لم يقف الخطاب الأصولي عند حدود الحركة الأصولية، فقد ظهرت بعض الجماعات التي اعتنقت الفكر الأصولي، ولكن بتطرف أكثر هذه المرة، وأهمها: جماعة التكفير والهجرة، وجماعة الجهاد.

2- التيار القومي:

تقوم الأيديولوجية القومية العربية على فكرة العروبة، وهي من الإيديولوجيات الأكثر شيوعاً في الوطن العربي، إذ آمن القوميون العرب بالعروبة كعقيدة يؤسس لها تراث مشترك من اللغة والثقافة والتاريخ والمصالح المشتركة، ووحدة المصير.. إلخ، فالقومية كما عبر عنها ميشيل عفلق، بقوله: "إن القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه" (عفلق، 1959، 139).

وعلى الرغم من أن فكرة القومية العربية هي خطاب حديث النشأة، إلا أن الوعي القومي له جذور تاريخية أسهمت في التكوين التاريخي للوعي القومي العربي، إذ تمثلت منذ ما قبل الإسلام على شكل بوادر وعي مشترك لدى العرب، وإن كانت أولية مبهمة بعض الشيء، إذ "تمثل ذلك الوعي مبدئياً في الاتجاه إلى تكوين اللهجة الأدبية الموحدة، بل اللهجات المتعددة، وكانت هذه لغة

الشعر، ثم تمثلت في القرآن، وبذلك كانت اللغة العربية تاريخياً أول الأسس المشتركة"(الدوري، 2019، 11) ، ويأتي الإسلام بعد ذلك ليوحد العرب من خلال وعي ديني عقائدي، "فحقق العرب بالإسلام معنى لوعيهم وتوثبهم أمة واحدة ولغة واحدة ورسالة تاريخية ووجهة واحدة" (الدوري، 2019، 14).

برزت طاقات العرب خلال مرحلة الفتوحات الإسلامية، التي تمثلت في محاولة العرب تأكيد وجودهم وذاتهم، وبسط سيطرتهم كهوية سواء أكان لغوياً أم أدبياً أم تاريخياً أو دينياً، ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال في الواقع العربي آنذاك، بسبب الصراع على السلطة والانشغال عن أمور الدولة، بالإضافة إلى أسباب أخرى، ليظهر بعد ذلك ما يسمى بالحركات الشعبوية التي ترى أن لا فضل للعرب على غيرهم من العجم، والتي عملت على دحض الفكرة العربية وتجلياتها المختلفة (الدوري، 2019، 36).

إلى بدايات الانهيار العثماني، حيث ظهر وعي جديد تمثل في تيار أساسي وهو التيار القومي العربي، إذ ظهر الوعي القومي في القرن التاسع عشر، ونما وتطور، وقد مهدت له محاولات نشر التعليم، وبث الثقافة، وخصوصاً في سورية ومصر، وترسخ لديه مبدأ عام مفاده، أن "أسس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ" (الحصري، 1961، 45)، وأصبح الخطاب القومي يقوم على مبدأ أساسي كمقوم للأمة العربية، رابطاً القومية بفكرة العروبة من خلال اللغة والتاريخ المشترك، فأي إنسان ينتمي إلى العربية وتاريخ هذه الأمة هو عربي، وهويته العروبة، وبذلك يعتقد القوميون أن أي مبدأ آخر سواء أكان الدين أم الدولة أم الحياة الاقتصادية أم الرقعة الجغرافية، ما هي إلا فروع وحواش للمقوم الأساسي، مبررين لذلك بأن الرقعة الجغرافية التي تقطنها الأمة تتوسع وتتقلص بتوالي السنين، وأن الأمة الواحدة قد تنتقل من رقعة إلى رقعة جغرافية أخرى، وقد تضم جماعات من أمم مختلفة (الحصري، 1961، 45).

كذلك مسألة الدماء والنسب، فقد حاول القوميون العرب استبدال وحدة التاريخ المشترك بها، منطلقين من فكرة أن "وحدة الأصل يجب أن تخرج من كل تعريف يتعلق بالأمة، فمن الأوفق الاستعاضة عنها جميعاً بوحدة التاريخ، لأن وحدة التاريخ، هي التي تؤدي أهم الأدوار في تكوين القرابة المعنوية" (برقاوي، 2006، 51)، وبذلك شكلت اللغة والتاريخ المشترك الأساس في وعي العرب لهويتهم القومية.

مع بداية القرن العشرين، تعرض الوعي القومي العربي لأولى أزماته التي تمثلت في الاستعمار، وفكر القوميين على أساس أن "الفكرة القومية مخرج للأقليات والطوائف والاصلاحيين والاستقلاليين العرب" (أبو زيد، 2008، ص443)، لتكتمل الأزمة مع اتفاقية (سايكس بيكو) التي عمقت الفجوة، وقسمت العرب.

ظهر سؤال الهوية واضحاً في هذه المرحلة في الخطاب الفكري القومي للعرب، من خلال التمايز بعدة سمات أساسية، تكون مقوماً لوجودهم في المستقبل عن غيرهم بانتمائهم إلى جذور أصيلة، و"يقوم هذا الخطاب على مبدأ الأمة الواحدة التي لها هوية سياسية تجمع بين أفرادها روابط خاصة، مثل: اللغة والعقيدة والمصالح المشتركة، والتاريخ والمصير المشترك الواحد" (أحمد، 1994، 19).

عمل العرب على بعث اللغة العربية وتأكيد أصالتها على اعتبارها العامل الأساسي في تكوين الهوية، وبالتالي تمثل مقوم أساسي يظهر العرب من خلاله أمة واحدة، "بالقومية العربية التي تجمع بين أبناء الأمة العربية الواحدة، تهدف إلى تحقيق استقلال الوطن العربي ووحدته، وبعث الحضارة العربية، وهي تستند إلى عناصر الوحدة الموجودة عند العرب في المشرق والمغرب، وهي اللغة العربية: على الرغم من وجود عدة لهجات في الوطن العربي، إلا أن اللغة التي يتحدثون ويقرؤون ويكتبون بها هي اللغة العربية" (أحمد، 1994، 19).

يرى الباحث أن هذا التركيز على مبدأ اللغة، قد شكل ثغرة في الخطاب القومي، لأن الجغرافية العربية فيها من لا يتكلم اللغة العربية، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يعدون أنفسهم منتمين إلى الأمة العربية وتربطهم بها مجموعة روابط غير مسألة اللغة، مثل العيش المشترك ووحدة المصير والتاريخ المشترك، وشكل هذا الفكر إيديولوجية عاش بها القوميون العرب، وكانت إيديولوجية طوباوية، لم تبحث عن فكرة الوحدة الشاملة بقدر ما ركزت على بعث القومية، وهنا نجد أنه لا بد للعمل القومي أن يكون واقعياً وقابلاً للتجديد، وليس مجرد نظريات علمية وخطابات أيديولوجية، إذ أن عدم مراعاة الفكر القومي للأوضاع الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والثقافية المتغيرة، سيمنع إنتاج واقع عربي جديد.

كما أن ارتقاء التفكير عبر الممارسات والتجربة الحياتية للبشر وانتشار منهجية التفكير العلمي في سائر حقول العلوم والمعارف، جعلا مصير الحياة الإنسانية والطبيعية مرتبطاً بالإنسان الذي أصبح محور المشهد الحياتي، وهنا تقدمت العقلانية كمنظومة تفكير دشنت عصر الأنوار، الذي كرّس ثلاثيته المعروفة: إخاء، مساواة، حرية، والتي شكلت أساساً تتبعه الدول القومية الحديثة في قوامها وهويتها وإدارة شؤونها، الأمر الذي نتج عنه ضرورة التفكير في فكر الذات بصفته حاملاً للهوية، وبالتالي ضرورياً لمحاولة فض الإشكاليات التي تعتريها (عبود، 2018، 11–13). وقد قارب فتحي التريكي (1992) هذه الإشكالية في علاقتها بالواقع العربي، فقال: "ولعل مسألة الذاتي والتاريخي أساسية في فهم نمط بناء الإنسان العربي الحالي، هذا الإنسان الذي يعاني أزمة التأصيل والثبات ويعيش اندثار الهوية في التجزؤ وتقلقل معطيات الانتماء" (32).

من هنا، نستنتج أن معاناة الإنسان الفرد العربي، من تركيبة المجتمع الذي يعيش فيه، وواقع مؤسساته، وطبيعة السلطات التي تحكمه، تقلل الخيارات المتاحة أمامه، وبالتالي تقلل من إمكانية تعقل هويته في وجودها وفي العالم، وتنحسر أسباب وجودها الفعلي وفق معطيات العالم الراهن، إذ لا يمكنها أن تتعين بأدوات الماضي، فهي لا تمتلك أدوات العصر، وبالتالي لا يمكنها أن تتعين على المستوى المحلي والعالمي، وأن تأخذ دورها في رسم مصير مجتمعها الذي تتعين فيه ولا في المشاركة في رسم مصير العالم، كما هو حال الهويات الأخرى كالإنكليزية أو الفرنسية أو اليابانية، بمعنى آخر، إن أهم إشكالات الهوية العربية، هو الضعف والعجز عن إعادة إنتاجها وصياغتها باستمرار، نتيجة التراجع في الاقتصاد والتنمية والبحث العلمي والفن وفي مختلف ميادين التفوق الحضاري، الأمر الذي يبقي الإنسان العربي حالة قلق هوية وفي حالة أزمة نتيجة ضعفه وعجزه عن تحقيق ذاته على المستويين الفردي والمجتمعي.

المبحث الثالث: تداعيات مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية:

فتح الحديث للمرة الأولى في سورية منذ عقود عن الهوية الوطنية السورية، حين نظم مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد في العاصمة دمشق يومي 20 و21 كانون الثاني 2018 مؤتمراً بعنوان: "الهوية الوطنية: قراءات ومراجعات في ضوء الأزمة السورية". جرى تنظيم هذا المؤتمر في وقت تشهد فيه سورية صراع هويات غير مسبوق، كإحدى نتائج الأزمة / الحرب التي عصفت بالبلاد منذ العام 2011. لم يرد منظمو المؤتمر البحث وتحديد هوية وطنية سورية، بل ما أرادوه هو فتح النقاش في هذا المجال، ويتضح ذلك مما ورد في مقدمة الدكتور حسام عبد الرحمن (2018) لأوراق المؤتمر، "إطلاق شرارة التفكير في موضوع الهوية الوطنية، وافتتاح النقاش حوله من باب الاستجابة الثقافية والفكرية لما يراه مركز دمشق تحدياً وجودياً لسورية، وليس انطلاقاً من هوية أو أيديولوجية بعينها، ولا

يريد من وراء ذلك أن يرسم أو يحدد هوية وطنية لسورية، ولا أن يدفع نحو تقديرات ومدارك هوية بعينها، بل أن يشجع على تكوين رؤية مشتركة بين جميع مكونات الشعب السوري لهوية مستقبلية تؤسس لجدلية التعدد والاختلاف داخل الوطن الجامع" (3).

وتمثل "الهوية الوطنية" في سورية تحدياً مركباً نظراً لكثرة العناصر المكونة للاجتماع السوري، واختلافها وتمايزها، إضافةً إلى تداعيات الأزمة / الحرب، فبتنا اليوم أمام لحظة تاريخية توجب إعادة النظر في موضوع الهوية، خصوصاً أنها باتت تمثل مدخلاً للأعداء للتسلل إلى سورية عبرها، لتزعزع أمن الدولة والمجتمع، وتوصل به إلى النزاعات والحروب (الورقة الخلفية...، 2018).

المطلب الأول: تداعيات الهوية العربية على الهوية السورية:

كشفت الأزمة / الحرب عن حدوث تمزق خطير في مفهوم الهُويَّة، إذ تحولت سورية في نسبة جغرافية منها، إلى مناطق سيطرة مختلفة يحكمها أمراء حرب، وتقلصت سلطة الدولة المركزية، وحدثت حركة نزوح مناطقية هائلة، إذ لحق كلّ ذي عرق أو أثنية بالأماكن التي يوجد فيها أبناء عرقه أو أثنيته، ولجأ كلّ ذي طائفة إلى مُستقر له حيث يقيم أبناء طائفته، واتجه بعض الناس إلى الإقامة في المدن والقرى التي تسيطر عليها الدولة أو تحميها، وفرّ بعضهم الآخر إلى خارج البلاد، ما أفضى إلى بزوغ شعورٍ طاغٍ لدى كل إنسان سوريّ بفقدان الانتماء إلى هُويَّة وطنية جامعة.

إذاً تواجه سورية اليوم مخاطر وتحديات غير مسبوقة على صعيد الهوية، فقد حاول الكثيرون منذ بداية الأزمة /الحرب، استخدام موضوع الهويات والانتقال منه إلى الحديث الطائفي والاثني الأضيق والهدام، فلم تهدف –بشكل عام– المقاربات التي اعتبرت الأزمة السورية "أزمة هوية"، إلى الوصول إلى هوية سورية جامعة، بل إلى تأجيج الخلاف وتوسيع الهوة لتحقيق أهداف ومصالح سياسية تتعارض بالطبع مع مصالح سورية الدولة والشعب (الورقة الخلفية...، 2018).

إذ أنه وخلال زمن قصير على بداية الأزمة / الحرب، بدأت تبرز العوامل الدينية والاثنية والقومية، وراحت تأخذ دوراً في تحريك الأحداث، وتعدت مطلب الحرية والمطالب المعيشية إلى مستويات أخذت بخلخلة "الهويّة الوطنيّة"، وصدعت مكوناتها، والأهم المكون الجغرافي، مع بروز جهات قومية وتنظيمات جهادية تكفيرية ذات نزعات جغرافية، مثل بعض التنظيمات الكردية في شمال شرق سورية التي أرادت بدعم أميركي اقتسام جزء من الأرض السورية بذريعة هويتها الكردية والمطالبة بمجال جغرافي خاص بها، أو مثل تنظيم داعش الإرهابي الذي ألغى الحدود السورية العراقية –حدود سايكس بيكو– للمرة الأولى منذ إقامتها قبل ما يقارب قرن من الزمن، لينشئ ما أسماه "الدولة الإسلامية في العراق والشام".

إذاً، ظهرت خلال العقد الماضي من تاريخ سورية، تصدعات خطيرة في الهوية السورية، أساسها عربي، منها ذات أيديولوجية قومية، إذ برزت القومية الكردية إلى جانب القومية العربية، في تجلي واضح لمشكلة الخطاب القومي العروبي في النظام السياسي السوري وفي الدستور السوري، وهي واحدة من المشكلات الأيديولوجية العربية التي وجدت صداها في الهوية السورية، وبات الخلاف على تسمية البلد الرسمية في الدستور المعتمد لعام 2012، إذ أن التسمية الرسمية هي الجمهورية العربية السورية، وهي تسمية لا تتناسب مع المطالب القومية للكرد، وبدأ الحديث عن تسمية جديدة وهي "الجمهورية السورية"، ويبدو ذلك واضحاً من التسميات التي أطلقها الكرد على تنظيماتهم السياسية والعسكرية، والتي برزت بعد العام 2011 مثل "قوات سوريا الديمقراطية" و"مجلس سوريا الديمقراطية"، وغيرها من التسميات التي غيّبت عنها الصفة العروبية.

وعبرت التنظيمات الكردية بوضوح عن الخلل في الهوية من وجهة نظرها، إذ أكدت رئيسة اللجنة التنفيذية لما يسمى "مجلس سوريا الديمقراطية"، إلهام أحمد، أن "الهوية السورية الحالية لا تمثل كل السوريين" (إلهام أحمد: ..."، 22 أيار 2022)، في إشارة إلى البعد العروبي في الهوية القائمة قبل الأزمة / الحرب، والمتمثلة بالطابع القومي العروبي.

على الصعيد الديني، فلا يمكن أن يُقرأ ما هو دينيّ في الأزمة / الحرب في سورية، على أنَّه موقف لاهوتيّ شعبيّ إزاء علمانية دولة ملحدة، ومردّ الظاهرة الدينية، ذلك إلى أنَّ الدولة السورية احترمت دائماً حرية المعتقد الديني وممارسة الشعائر الدينية، إلا أن هذه الجهود كافة التي قامت بها الدولة السورية لم تكن كفيلة بدرء خطر انتشار الاعتقادات الأصولية، والأصوليات التكفيرية في المجتمع السوري، فكانت التنظيمات الإرهابية التكفيرية ذات الأيديولوجية الدينية الأصولية، كتنظيمي داعش وجبهة النصرة الإرهابيين، نصالٌ مسمومة في الهُويّة الوطنية ومزقتها (اسبر، 2018، 4).

مثلت قضية الانتماء والولاء عامل إضافي، ساهم في شرخ الهوية السورية خلال الأزمة / الحرب، إذ أن الكثير من هياكل المعارضة تشكلت في الخارج وبات انتماءها سوري لكن ولاءها للجهات التي شكلتها ودعمتها ومولتها، وراحت تعمل على تنفيذ أجنداتها بعيداً عن المصلحة الوطنية وما تقتضيه، وكان يقوم ارتباطها بتلك الدول على مجموعة من الأسس التي ترتبط بمصالح أعضاء تلك الهياكل المعارضة الشخصية، إذ مثل الانتماء القبلي والعشائري والبحث عن مصالح اقتصادية عاملاً أساسياً في تشيل الهياكل المعارضة التي اتخذت من دول الخليج مقراً لها، على حين أن بعض أعضاء هياكل المعارضة ذات الخلفية الدينية المرتبطة بالإرث الديني التاريخي للخلافة العثمانية، اتخذت من تركيا مقراً لها، بينما شكلت مصر مقراً لبعض دعاة القومية العربية.

بما يؤكد تداعيات مشكلة الهوية العربية على الهوية السورية، تلك التداعيات التي برزت في مرحلة ما بعد الاستقلال، والتي برزت مجدداً مع الأزمة / الحرب، وقد لخصها الباحث في الفقرات السابقة، ويؤكد فروزن (1972) المسألة بقوله: "إن الاقتطاعات العديدة من سورية منذ بداية هذا القرن (القرن العشرين)، قد وقفت حائلاً دون نمو أي ولاء متلاحم أو محدد للدولة السورية كوطن، وما زالت تأثيرات هذه التغيرات الحدودية على التكامل الوطني واضحة حتى الآن، فمن ناحية، نجد أن هذه الحدود تراعى من الناحية الفنية فقط، وأن الهوية العربية أقوى بكثير من الهوية السورية، وفي الوقت عينه، نمت فكرة الكيانات دون الوطنية، فقد تشظى الولاء نحو كيانات أكبر من الوطن السوري الراهن، ونحو كيانات أصغر: إقليمية ودينية أو طائفية أو إثنية، في مقابل عدم نمو ولاء وسط، ولاء وطني" (123).

نلاحظ من هذا العرض لتصدع الهوية السورية خلال الأزمة / الحرب كيف أن انتماؤنا إلى مسيرة التقدم والتطور في العالم، كان انتماءً زائفاً، وكيف آل بنا هذا الانتماء الزائف الى سيادة الاستبداد والتخلف وإلى التشرذم والعنف، الأمر الذي دمر الحريات الفردية والجمعية، وبدد مشروع هويتنا، وتحول الفرد الذي هو محور الوجود وغايته، إلى كائن مهمش، فالهوية في الحصيلة وفي المآل هي اختيار، اختيار على صعيد الفرد، واختيار على صعيد المجتمع، وهي في حالة اختيار مستمر، ويتطلب الاختيار جو من الحرية، إذ أن ما ينتجه الفرد وما يصنعه لنفسه، هو ما يشكل هويته، والهوية هنا، إن على صعيد الفرد أو على صعيد المجتمع، في حالة صيرورة دائمة، وفي حالة تشكل مستمر (الهوية السورية ...، 23 تموز 2016).

وهنا، يرى الباحث أن معالجة المشكلة في الهوية السورية، تقتضي فصلها عن الهوية العربية عموماً، ومن ثم تفكيك المشاكل التي تعتريها، بحثاً عن هوية تتسع للجميع وترضي الجميع وتحقق مصالحهم، ضمن مشروع وطني كبير يلبي رغبات الجميع.

المطلب الثاني: تفكيك المشكلة وإعادة البناء

يعرف التفكيك اصطلاحاً على أنه: خروج الشيء عن الشيء ثم زواله، ويأتي هذا الخروج بدرجة أو نسبة الجزء من الكل، وهو الأمر الذي دعا إليه الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا في محاولاته لتدمير الكل وتقويضه ونسيانه، إذ يقول دريدا: "إن التفكيك حركة بنيانية وضد بنيانية في الآن نفسه، فنحن نفكك بناء أو حادثاً مصطنعاً لنبرز بنيانه وأضلاعه وهيكله، ولكن نفك في آن معاً البنية التي لا تفسر شيئاً، فهي ليست مركزاً ولا مبدأ ولا قوة، فالتفكيك هو طريقة حصر أو تحليل يذهب أبعد من القرار النقدي" (ديوان، 2020، 163).

إن وحدة الشعب السوري لا تنفي طبيعته التعددية، فالوحدة المراد بناءها هي وحدة الأمل والعمل للخروج من الحرب، تلك هي نقطة البداية، فالشعب السوري، شعب واحد في تعدده، الاثني والديني والطائفي والمناطقي واللغوي. وربما كان هذا العنصر هو أحد الخصائص التي تميّز سورية، عن عدد كبير من الدول العربية التي نشأ معظمها خلال القرن العشرين.

يتطلب ذلك التمهيد، عن طريق الاهتمام بالبحث في مقومات الهوية الوطنية السورية، بطرح موضوعها للنقاش بين الباحثين والمهتمين والقوى السياسية السورية، ويمكن أن تمثل عملية نقد وتفكيك الكتابات التي تتضمن رؤى ومفاهيم مقترحة في كتابات السوريين خطوة ضرورية في هذا الاتجاه، ومن ثم وضع طبيعة الانتماء وهويته على جدول أعمال الحكومة السورية، ومن ثم العمل حثيثاً على إبرام عقد اجتماعي جديد قوامه هذا الانتماء، الذي يجب أن يتمظهر ويتجذر فيما وراء الشعارات النظرية أو البرامج السياسية والخطابات الايديولوجية لمختلف القوى السياسية السورية من أحزاب ونظم وحكومات، إذ أن العمل من أجل بناء هوية وطنية سورية تستجيب لمكونات المجتمع السوري جميعاً بلا استثناء، يمكن أن تشكل نقطة الاستقرار لسورية والانطلاق نحو سورية المستقبل.

انطلاقاً مما سبق، تجدر الإشارة إلى أن إعادة البناء تتطلب مستلزمات ضرورية لتحقيق العيش المشترك بين أفراد المجتمع، للخروج من الوضع السوري الراهن، ومن هذه المستلزمات، بلورة مفاهيم التسامح والتعايش والمواطنة في المجتمع السوري.

– التسامح: يعني التسامح لغوياً التساهل والمسامحة تدل على المساهمة (شعبان، 2013، 130)، أما دلالاته اللغوية في اللغات الأوروبية تحمل القبول بالآخر المختلف واحترام حقوقه (التميمي، 2006، 274).

يعرف التسامح اصطلاحاً وفق محمد عابد الجابري (2006)، بأنه: "موقف فكري وعملي قوامه تقبل المواقف الفكرية والعلية التي تصدر عن الغير، سواء كانت موافقة أم مخالفة لمواقفنا" (275)، وتعرفه الأمم التمم المتحدة، بأنه: "القبول والاحترام بتنوع واختلاف الثقافات، وهو ليس مجرد واجب أخلاقي بل ضرورة سياسية وقانونية، وهو فضيلة تجعل السلام ممكناً، وليس مجاملة بل اعتراف بالحقوق العالمية للإنسان" (التميمي، 2006، 275).

يرى الباحث أن التسامح يمثل قاعدة أخلاقية يجب أن توطد قانونياً في المجتمع السوري الذي تعرض لأزمة / حرب، ضربت سلمه الأهلي وتعايش تكويناته الاجتماعية، وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أهمية المصالحات الوطنية الجزئية التي تمت حتى الآن في سورية، مع ضرورة التفكير بمصالحة وطنية كبرى تشمل السوريين جميعاً، وتقدم لهم سبيلاً للخروج من ذكريات الحرب الأليمة.

– التعايش: يعد تبني مبدأ التعايش آلية لمعالجة مشكلة التنوع ونزع فتيل الصراعات، وخلق الانسجام الاجتماعي، إذ يخلق التعاون والثقة والاحترام، ويهدف إلى إيجاد أرضية مشتركة بين الأطراف ترتكز على منظومة القيم الإنسانية المشتركة، ويعرف التعايش لغة بأنه: التآلف والوداد بين الناس، والتآلف يعني العيش سوية على آرض واحدة، مع قبول كل واحد منهم بهذا العيش (عبده، تشرين الأول 2011، 141).

ويعرف اصطلاحاً، وفق إبلين بابيت، بأنه: إقامة علاقات بين اثنين أو أكثر من الجماعات المختلفة الهوية، التي تعيش بتقارب يشمل أكثر من مجرد العيش بجانب بعضهم البعض، كما يشمل درجة معينة من الاتصال والتفاعل والتعاون ويمكن أن يمهم

التعايش إلى تحقيق المصالحة على أساس السلام والعدالة والتسامح" (مهدي، 2011، 174)، إذاً يشكل التعايش نموذجاً لاستئناف حياة منتجة آمنة، ونظاماً اجتماعياً يمكن للأفراد اللذين انخرطوا في أعمال عدائية سابقة أن يعيشوا معاً دون أن يدمر أحدهم الآخر، ولهذا فهو طريقة إدارة تجنب تجدد العداءات، ويحمل احتمالات تحقيق اندماج اجتماعي واقتصادي أكثر عمقاً.

يرى الباحث أن مناهج التعليم التي تراعي المجتمع المتعدد، ووسائل الإعلام التي تحاكي تطلعات الجميع وتنقل صوتهم، وإشاعة البرامج التي تشجع على الحوار والحل السلمي للخلافات مثل فن المناظرة وفن التفاوض، تساهم في إدارة النزاعات والذهاب باتجاه تعايش سلمي بين التكوينات الاجتماعية المختلفة في الهوية والتي عاشت مرحلة من الصراع فيما بينها، ومثال ذلك الحالة السورية.

– المواطنة: تعرف المواطنة لغة على أنها مصدر للفعل واصن، وهو فعل يقتضي المشاركة في الموطن والتوافق على العيش المشترك فيه، ولهذا فالمواطنة تتطلب شرطين: الإقامة في مكان جغرافي، والتوافق على العيش المشترك (مباركة، 2013، 70).

أما اصطلاحاً فتعرف المواطنة: الانتماء إلى الوطن، حيث تمتع المواطن فيه بالعضوية كاملة الأهلية، ويحترم كل مواطن المواطن الآخر، كما يتسامح الجميع تجاه بعضهم البعض رغم التنوع والاختلاف (رضوان، 2013، 75).

يرى الباحث، أن تبني مفهوم المواطنة يساعد على تجاوز العديد من المشاكل وإدارة التعدد الاثني، حيث يمكّن التكوينات المجتمعية من الحفاظ على خصوصيتها، ويحول دون تصادم الهويات والانتماءات المختلفة.

إن الانهيار النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي الذي عاشته سورية خلال العقد الأخير من الأزمة / الحرب، وما خلفه من دمار للإنسان والمكان، وتهجير ونزوح ولجوء، يجعل من مشروع بناء الهوية ذا أهمية بالغة وأولوية قصوى، يتطلب أن يكون حاضراً في كل الخطوات الأخرى لإعادة بناء سورية الوطن الآمن المستقر ذات السيادة، بدءاً من إعادة صياغة الدستور، وصولاً إلى المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، مروراً بالإعلام وكل المؤسسات المدنية والنقابية والحزبية.

وفي سبيل تنفيذ الخطوات السابقة، إننا بحاجة ماسة إلى معرفة تضمن تفوقنا الإنساني والأخلاقي، وإرادة كافية لإطلاق إمكانيات هذه المعرفة لتأكيد مكانة الإنسان المتفوق الجدير بتحقيق هذه المهمة، على أن يكون التفوق الذي نتطلع إليه تفوقاً حضارياً، لا تفوقاً عرقياً ولا عصبياً (أبو حلاوة، 2018، 7).

الخاتمة:

خلص الباحث من دراسته إلى مجموعة من النتائج، التي تجيب عن تساؤلات الدراسة، الت تمحورت حول الأسباب التي تجعل من الهوية مشكلة في الواقع العربي، وما هي تداعياتها على الهوية السورية، ومنها:

1– يمثل كل من الانتماء والولاء أزمة لدى العرب، تتمظهر في تمزق هويتهم إلى مجموعة من الهويات الفرعية ما دون الوطنية، تبدو حاضرة في وعيهم وسلوكهم، وهي نتيجة لشروط عديدة تم ذكرها، إذ أن الكثير من الهويات المتعددة لا زالت فاعلة ومتيقظة فيهم، وهذه الانتماءات الجزئية خلقت ولاءات ضيقة، وكثيراً ما تتحول إلى أداة للصراع مع الآخر، كما حدث ويحدث في العديد من البلدان العربية ومنها سورية، ما يوسع دائرة الخلاف والصراع بين العرب أنفسهم.

2– تمثل إيديولوجية التيارين القومي والديني، مشكلة في الهوية العربية برزت في اختلاف شتى مجالات الحياة والفكر والوعي والسياسة والاقتصاد، والأهم من ذلك تشكل رؤى مختلفة بعضها مع بعض في مفهوم الدولة.

3- بنى التيار الديني الإسلامي نظرته للواقع انطلاقاً من مبدأ أساسه أن ما به العرب من تخلف وسوء، راجع إلى ابتعادهم عن الدين، واستندت أفكاره إلى أمجاد الماضي، وحاول تفسير التردي العربي الحالي في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة، بأنها عائدة لأسباب غيبية، أساسها غضب الإله.

4- حاول الخطاب القومي إيجاد صيغة مشتركة للعرب أساسها الانتماء إلى الدولة الأم، وعلى أساس أن العرب أمة واحدة يجمعهم تاريخ مشترك ولغة واحدة، وأن الحل للتردي العربي الحالي، يكون من خلال الوحدة القومية، التي كان أول ما اصطدمت به التقسيم الاستعماري والهزائم المتتالية، هذا على الصعيد الخارجي، أما على الصعيد الداخلي فإن وجود أقليات غير عربية لم يلحظ في الخطاب القومي الذي مثّل خطاباً شمولياً في معظم أطروحاته.

5- إن تركيبة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان العربي، وواقع مؤسساته، وطبيعة السلطات التي تحكمه، تقلل الخيارات المتاحة أمامه، وبالتالي تقلل من إمكانية تعقل هويته في وجودها وفي العالم، فهي لا تمتلك أدوات العصر، وبالتالي لا يمكنها أن تتعين على المستوى المحلي والعالمي، وأن تأخذ دورها في رسم مصير مجتمعها الذي تتعين فيه ولا في المشاركة في رسم مصير العالم، وهذه أهم إشكالات الهوية العربية.

6- تواجه سورية اليوم مخاطر وتحديات غير مسبوقة على صعيد الهوية، فقد حاول الكثيرون منذ بداية الأزمة /الحرب، استخدام موضوع الهويات والانتقال منه إلى الحديث الطائفي والاثني الأضيق والهدام، الأمر الذي كان أشبه بإسقاط لمشكلة الهوية العربية على الهوية السورية، والتي ساعدت الأزمة / الحرب في إظهارها.

7- إن انتماء السوريين إلى مسيرة التقدم والتطور في العالم، كان انتماءً زائفاً، آل بهم إلى سيادة الاستبداد والتخلف وإلى التشرذم والعنف، الأمر الذي دمر الحريات الفردية والجمعية، وبدد مشروع هويتنا، وتحول الفرد الذي هو محور الوجود وغايته، إلى كائن مهمش، فالهوية في الحصيلة وفي المآل هي اختيار، اختيار على صعيد الفرد، واختيار على صعيد المجتمع، وهي في حالة اختيار مستمر، ويتطلب الاختيار جو من الحرية، إذ أن ما ينتجه الفرد وما يصنعه لنفسه، هو ما يشكل هويته، المؤثرة في مصيره ومصير بلده والعالم.

من خلال هذه النتائج تتحقق فرضية الباحث بأن الخلل في مفهوم الانتماء والولاء والصراع الإيديولوجي بين التيارات الدينية والقومية، نتيجة تعدد الأديان والأعراق وإعادة رسم الجغرافيا في المنطقة العربية، مشكلة في الهوية العربية، جعلت من الإنسان العربي غير قادر على الاختيار، هذه المشكلة كان لها تداعيات سلبية على الهوية السورية التي تشظّت بسرعة أمام اختبار الحرب.

إن معالجة المشكلة في الهوية السورية، تقتضي رفع تداعيات الهوية العربية عنها، ومن ثم تفكيك المشاكل التي تعتريها، بحثاً عن هوية تتسع للجميع وترضي الجميع وتحقق مصالحهم، إعادة بناء هذه الهوية، تتطلب مستلزمات ضرورية لتحقيق العيش المشترك بين أفراد المجتمع، للخروج من الوضع السوري الراهن، ومن هذه المستلزمات، بلورة مفاهيم التسامح والتعايش والمواطنة في المجتمع السوري، إذ يمثل مشروع بناء الهوية أهمية بالغة وأولوية قصوى، يتطلب أن يكون حاضراً في كل الخطوات الأخرى لإعادة بناء سورية الوطن الآمن المستقر ذات السيادة، بدءاً من إعادة صياغة الدستور، وصولاً إلى المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، مروراً بالإعلام وكل المؤسسات المدنية والنقابية والحزبية والبحثية، بما يتيح للفرد الكمية الكافية من الحرية، التي توسع الخيارات أمام الناس لإنتاج وعيهم بذاتهم وهويتهم، على أساس القيمة الحضارية، وهو ما لم نتمكن منه.

معلومات التمويل : هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع:

أولاً– الكتب:

1. أحمد، أحمد يوسف. (1994)، العرب وتحديات النظام الشرق أوسطي، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
2. برقاوي، أحمد. (2004)، العرب وعودة الفلسفة، ط: 2، دمشق: سورية، دار طلاس، 2004.
3. برقاوي، أحمد. (2006)، المشروع النظري للتيار القومي العربي، دمشق: سورية.
4. البنا، حسن. (1977)، رسالة المؤتمر الخامس، طبعة القاهرة، القاهرة: مصر، دار الاعتصام.
5. التريكي، فتحي، والتريكي، رشيدة. (1992)، فلسفة الحداثة، بيروت: لبنان، مركز الإنماء القومي.
6. الجابري، محمد عابد. (2006)، مسألة الهوية العربية والإسلام... والغرب، ط: 3، سلسلة الثقافة القومية (27)، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
7. الحصري، ساطع. (1961)، حول القومية العربية، بيروت: لبنان، دار العلم للملايين.
8. الدوري، عبد العزيز. (1984)، التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط: 1، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
9. الدوري، عبد العزيز. (2019)، الجذور التاريخية للقومية العربية، ط: 2، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
10. ديب، كمال. (2012)، تاريخ سورية المعاصر، من الانتداب الفرنسي إلى صيف 2011، ط: 2، بيروت: لبنان، دار النهار.
11. راتب، نجلاء عبد الحميد. (1999)، الانتماء الاجتماعي للشباب المصري، القاهرة: مصر، مركز المحروسة للنشر.
12. رضوان، عبير بسيوني. (2013)، أزمة الهوية والثورة على الدولة، القاهرة: مصر، دار السلام للنشر.
13. سنو، غسان حمزة، والطراح، علي أحمد. (1996)، الهويات الوطنية والمجتمع العلمي والإعلام، ط: 1، بيروت: لبنان، دار النهضة العربية.
14. شعبان، عبد الحسين. (2013)، في الحاجة إلى التسامح: ثقافة القطيعة والتواصل، في: الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية، تحرير: عبد الإله بلقزيز، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
15. عفلق، ميشيل. (1959)، في سبيل البعث–الكتابات السياسية الكاملة، ج: 1، بيروت: لبنان، دار الطليعة.
16. عمارة، محمد. (1979)، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، بيروت: لبنان، المؤسسة العربية للدراسات.
17. عمارة، محمد. (1980)، الإسلام وقضايا العصر، ط: 1، بيروت: لبنان، دار الوحدة.
18. فرزت، محمد حرب. (1955)، الحياة الحزبية في سوريا 1908.1955، دمشق: سورية، منشورات دار الرواد.
19. قطب، سيد. (1979)، في ظلال القرآن، ج: 3، بيروت: لبنان، دار الشروق.
20. الكواكبي، عبد الرحمن. (2002)، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ط: 1، دمشق: سورية، دار المدى للثقافة والنشر.
21. مباركة، منير. (2013)، مفهوم المواطنة في الدولة الديمقراطية وحالة المواطنة في الجزائر، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
22. محمود، زكي نجيب. (1990)، قيم في التراث، بيروت: لبنان، دار الشروق.

23. مكي، يوسف. (2002)، وعي الهوية العربية من منظور تاريخي، بيروت: لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.

ثانياً- المعاجم والموسوعات:

1. الجرجاني، التعريفات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1938.
2. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، معهد الإنماء العربي، ط1، مجلد1، 1986.
3. معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ط1، مجلد1، 1986.
4. المنجد في اللغة والإعلام، ط1، دار الشروق، بيروت، لبنان، 2002.

ثالثاً- المجلات والدوريات:

1. أبو حلاوة، كريم. (2018)، القلق من تصدع الهوية الوطنية، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد.
2. أبو زيد، سركيس. (2008)، الفكر القومي في مواجهة الطائفية، مؤتمر تجديد الفكر القومي والمصير العربي، دمشق 15-19 نيسان.
3. اسبر، علي. (2018)، أزمة الهوية الوطنية بين الديني والسياسي، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد.
4. باروت، محمد جمال. (شتاء 2013)، المؤتمر السوري 1919 .1920، مجلة تبيّن، العدد 3، ص-ص 23 – 48.
5. برقاوي، أحمد. (2006)، تأمل في المسألة العربية، مجلة الفكر السياسي، العدد 6، دمشق: سورية، اتحاد الكتاب العرب.
6. برقاوي، أحمد. (2010)، التحديد النظري لمفهوم الهوية، مجلة السفير.
7. بركات، عمر علي. (1996)، الهوية الجديدة بين مالك بن نبي وعلي عزت، مجلة القاهرة، العدد 165، القاهرة: مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
8. التميمي، حميد فاضل حسن. (2006)، مبدأ التسامح: أنساقه الفكرية ودوره في تعزز العملية السياسية العراقية، مجلة العلوم السياسية، مجلد: 17، عدد: 33، ص ص. 273-292.
9. ديوان، نضال ناصر. (2020)، آلية التفكيك في فنون ما بعد الحداثة ودورها في تربية التذوق الفني للمتعلم، مجلة الأكاديمي، العدد: 95، ص161-178.
10. عبد الرحمن، حسام عيسى. (2018)، الدولة والبناء الوطني السوري، جدلية الدولة والهوية بين التفكيك والاندماج، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد.
11. عبده، محمد جاسم. (تشرين الأول 2011)، فقه التعايش بين الطوائف: دراسة تأصيلية، تكريت: العراق، مجلة جامعة تكريت، المجلد 18، عدد 7، ص-ص: 140-171.
12. عبود، مقداد. (2018)، الهوية العربية وفرعتها الوطنية السورية بين الخبو واستئناف النهوض، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد.

13. عرودكي، بدر الدين. (تشرين الثاني 2020)، الهوية الوطنية السورية بين الإشكالية والالتباس – التاريخ والواقع والمستقبل، غازي عنتاب: تركيا، مركز حرمون للدراسات المعاصرة.

14. مهدي، عبير سهام. (2011)، مفهوم التعايش السلمي ودوره في تحقيق الوحدة الوطنية: العراق أنموذجاً، مجلة حوليات المنتدى، مجلد: 1، عدد: 7، ص–ص: 171–194.

15. الهوية السورية المبددة واستعادتها، غازي عنتاب: تركيا، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 23 تموز 2016.

16. الورقة الخلفية لمؤتمر الهوية الوطنية: دمشق 6–7 أيلول/سبتمبر 2017، آذار 2018، دمشق: سورية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد.

رابعاً– المراجع الأجنبية:

Michael H.Van Dozen, 1972, "Political Integration and Regionalism in Syria', The Middle East Journal, Vol. 26, No. 2.

خامساً– مواقع إلكترونية:

إلهام أحمد: الهوية السورية الحالية لا تمثل كافة السوريين، روسيا اليوم، 22 أيار 2022، تم الاطلاع بتاريخ 16 كانون الأول 2022، على الرابط التالي: https://arabic.rt.com